

## ملف العدد

• HASSAD EL FIKR • العدد ( 244 ) رمضان 1433 هـ • أغسطس 2012 م

### المرأة بين القرآن وواقع المسلمين

من هنا كان تصدي المفكر التونسي راشد الغنوشي لتلك التهم عبر الرجوع إلى (القرآن الكريم) بعقل مفتوح لاستعراض عدد من الموضوعات المتعلقة بالمرأة والمتناثرة في سور القرآن، وإلقاء أضواء قوية عليها من مشكاة أئمة الفكر الإسلامي، وبخاصة كتب التفسير وتنزيل هذه الحقائق الساطعة على واقع المرأة في عالم المسلمين!

وجاءت هذه المفاصلة في قسمين أساسيين: القسم الأول: (المرأة في القرآن الكريم)، وذلك من خلال خمس حلقات:

#### ١- مقدمة: أصل واحد:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١).

ذهب أكثر المفسرين إلى تناول النصوص القرآنية المتعلقة بمسألة خلق آدم وزوجه (عليهما السلام)، باعتبار أن حواء مخلوقة من ضلع آدم هي حقيقة مسلمة، وإنما الذي ساقهم إلى هذا التأويل المنهج الذي اتبعوه في اعتماد التراث الديني اليهودي (الإسرائيليات) في تفصيل ما أجمله القرآن من قصص، مع أن النصوص القرآنية والحديثية لم تفتأ تحذر من التلقي عن أهل الكتاب في أمور الدين!

تبنت حركات التغريب في العالم الإسلامي، إقناع الجماهير بأن الإسلام بمبادئه وقيمه حجر عثرة في مسيرة العصر ومواكبة التقدم المنشود، وكان (واقع المرأة المسلمة) المتأثر بعصور الانحطاط والتخلف من أكبر السهام التي وجهت إلى الإسلام وهو منه براء!

## المرأة بين القرآن وواقع المسلمين

راشد الغنوشي

د. الشرف



• المؤلف: راشد الغنوشي

• الناشر: دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠١٢م

• عدد الصفحات: ١٢٨ صفحة

• عرض: أحمد حسن علي

حسبان حواء خلقت من ضلعه، وبين خلقت من جنسه بعمل إلهي مباشر، فإن الفرق في الحقيقة مهم جداً بين التأويلين على الصعيد النظري والعملي (فالتأويل الأول): يكرس تبعية المرأة للرجل على الصعيد الاجتماعي وانمحاء شخصيتها وذوبانها في شخصيته، وتكريس التميز والأفضلية على أساس الجنس مما يتنافى مع مقاصد الشريعة على حين أن (التأويل الثاني) هو تأصيل لمفهوم إسلامي وإنساني أساسي، ألا وهو تحقيق استقلال شخصية المرأة وتحملها مسؤولية وجودها ومصيرها كاملاً، وهو خطوة أساسية للقضاء على كل تمييز يقوم على أساس العرق والعنصرية والاضطهاد، وهو مقصد أساس للشرع الحنيف.

## ٢ - (اسكن أنت وزوجك الجنة)،

قصة الخلق الأولى والدخول إلى الجنة، وإذن الرب لآدم وزوجه بالتمتع بالطيبات عدا شجرة واحدة، وإغواء الشيطان، هي فصول أساسية في الكتب المنزلة، بل في كثير من الأدبيات الدينية والفلسفية كافة، وعلى الرغم من أن موضوع تلك القصة متشابه؛ فإن دلالاتها ومقاصدها متباينة - وردت القصة في أسفار أهل الكتاب في معرض الإدانة واللعن وغضب الرب، بينما وردت في القرآن في معرض التكريم العلوي للنوع الإنساني: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.. ﴿اسجدوا لآدم﴾.

ويرد الحديث عن الشجرة في التوراة والأنجيل بوصفها للمعرفة التي يتوق البشر إليها، ولكن الإله يمنعه منها ليبقى جاهلاً، وما يحصل على تلك المعرفة إلا بمعصية الرب، فيكون جزاؤه اللعن والطرده من رحمة الله لينزل الأرض مفضوياً عليه مطروداً، فيشقى.

بينما تمثل الشجرة في قصة آدم في الجنة أداة لاختبار إرادة الإنسان وتدريبه على التحكم في إرادته بوصفه عنصراً أساسياً في تنظيم سلوكه، ولما هو مقدم عليه من التنظيم الاجتماعي.

فقد أورد الإمام الرازي ثلاث تأويلات للآية ﴿وخلق منها زوجها﴾ وكان أرجحها: (... والمراد خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويها في الإنسانية)، وأضاف أيضاً: (... فلما ثبت أنه تعالى قادر على خلق آدم من التراب كان أيضاً قادراً على خلق حواء من التراب، وإذا كان الأمر كذلك فأي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم؟).

وهذا الرأي يميل إليه الإمام محمد عبده: (إن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد والمسلمات، أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو الكائن الممتاز على غيره من الكائنات، أي خلقهم من جنس واحد وحقيقة واحدة).

ويؤكد الإمام الطباطبائي: (أعني قوله (وخلق منها زوجها) أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتمثل، وأن هؤلاء الأفراد المبثوثين مرجعهم جميعاً إلى فردين متمثلين متشابهين).

أما الأحاديث النبوية التي تعرضت لخلق المرأة، والتي يبدو أنها أوقعت كثيراً من المفسرين في شباك الإسرائيليات مثل: (إن المرأة خلقت من ضلع، وإنك إن تُرد إقامة الضلع تكسرهما فدارها تمش بها) رواه أحمد وابن حبان، والحاكم في المستدرک.

ليس في هذه الأحاديث ما يستدل على تأييد ما ورد في كتب اليهود من أن حواء خلقت من ضلع آدم، بل كل ما تضمنته توجيهات تربية للرجال في التعامل مع النساء برفق ومودة بعيداً عن العنف والقسوة.

ويسير الأستاذ سيد قطب في تفسيره على تأييد هذا الرأي: (وكل الروايات التي جاءت عن خلقها من ضلعه مشوبة بالإسرائيليات، لا نملك أن نعتد عليها، والذي يمكن الجزم به هو فحسب أن الله خلق له زوجاً من جنسه فصارا زوجين اثنين).

وعلى الرغم مما قد يبدو من تشابه بين

## عدد كبير من المفاهيم المتعلقة بالمرأة يحتاج إلى إعادة نظر في ضوء النصوص الثابتة، ومن هذه المفاهيم: عمل المرأة والاختلاط والتعليم



الإلهي لتلك المعتقدات البالية من خلال توجيه الخطاب الإلهي إلى تلك الأم الأسيفة، فقد أنعم الله عليك بخير معيذاً الاعتبار لا لهذه المولودة فحسب، بل للأنثى كل أنثى من خلال ذلك.

وفي هذا الإطار ثار الجدل حول كثير من القضايا مثل قضية (نبوة المرأة) رغم اعتقاد الجميع في استحالة ظهور نبوة جديدة رجالية أو نسوية، مما يؤكد الوظيفة الاجتماعية لهذا الجدل في تهميش دور المرأة من وراء التأكيد على عدم تأهيلها الطبيعي لذلك التكريم والشرف.

إن مجال الترقى مفتوح للجميع رجالاً ونساءً من دون أي عائق من نسب أو لون؛ لأنه لئن كانت النبوة قد تم بنيانها؛ فإن إرثها - وهو رصيد هائل من القيم والكمالات - أمانة في عنق الوارثين من الرجال والنساء.

٤ - (إن كيدكن عظيم)،

الكيد في اللغة: المكر والاحتيايل والاجتهاد في التدبير والمعالجة، ولقد ورد في القرآن كثيراً منسوباً إلى الإنسان والشیطان، بل ورد منسوباً لله في معرض المقارنة بين كيد المخلوقات وخالقهم.

وفي سورة يوسف عرض الامتحانات والابتلاءات لعبده يوسف ضمن خطة إعداده لمنصب القيادة السياسية والدينية في مصر، يواجه أخطر فتنة وهي (امرأة العزيز)، وقد أورد المؤلف عدة ملاحظات:

- إن الصلاح والتقوى، بل النبوة ذاتها لا

أما المعرفة؛ فهي هبة من الله للإنسان وتكريم له: «وعلم آدم الأسماء كلها»، بهذا الإطلاق الدال على الإمكانيات غير المحدودة للتعلم التي أعطيها الإنسان، والتي هي السبيل لمعرفة الخالق ولتسخير طاقات هذا الكون والتطور غير المحدود.

على حين تؤكد أسفار العهد القديم كالجديد على المرأة بوصفها عنصر إغواء وتحميلها عبء الخطيئة وتبرئة آدم منها: (إن آدم لم يفو، ولكن المرأة أغويت)، وقدم الأستاذ سيد قطب من خلال قصة آدم وزوجه تصوراً كاملاً للإنسان، فالملاقات الإنسانية ومنهج المعرفة في الإسلام، قائلاً: (لعلني ألع أن هذه التجربة كانت تربية لهذا الخليفة وإعداداً، وكانت إيقاظاً للقوى المذخورة في كيانه، كانت تدريباً له على تلقي الفؤاية، وتذوق العقوبة وتجرع الندامة ومعرفة العدو، والالتجاء بعد ذلك إلى الملاذ الأمين).

والغريب أنه وتحت تأثير الثقافة اليهودية المسيحية أن تتحول المرأة من مخاطب كفاء للتلقي عن ربها، على قدم المساواة مع زوجها إلى مصدر جهد للإغواء والفتنة، وينسب تلك النظرة القاصرة إلى الإسلام!

٣ - (وليس الذكر كالأنثى)،

إن الجملة المختصرة «وليس الذكر كالأنثى» (آل عمران: ٣٦)، لا علاقة لها بالبتة بالمعنى الذي حملت عليه تعسفاً من تفضيل الذكر على الأنثى، فهي لا تخرج في السياق الذي وردت فيه عن الدلالة على أحد المعنيين:

الاختصاص: فليس يصلح أحد الجنسين لكل ما يصلح له الآخر؛ فقد يكون أحدهما مؤهلاً لوظائف لم يؤهل لها الآخر مما يندرج ضمن قاعدة تقسيم العمل في مرحلة من مراحل تطور المجتمع.

التسرية: عن امرأة عمران وإذهاب ما داخلها من غم بولادة أنثى، وقد نذرت وليدها لمهمة دينية كانت تقضي أن يكون ذكراً، فجاء التصحيح

بعدي فتنة أشد على الرجال من النساء" (أخرجه البخاري).. دلالة على تقديم حب النساء وخطره على بقية المشتبهات الأخرى، وليس الأمر كما ذهب إليه.

وأضاف المؤلف ملاحظتين إضافيتين على أقوال المفسرين المتلاحقة:

- إن الدين لم يذم أو يحتقر ذلك النداء الطبيعي، ولم يعتبر الرقي في الترفع عن الفطرة الإنسانية؛ فإن هذه النظرة المترفعة المعكوسة تؤدي إلى صراع تتعد فيه نفوس الرجال والنساء على السواء.

وإذا كانت النساء فتنة، فمعنى ذلك أنها موضوع اختبار للرجل توجيهاً له وحضاً على إحسان معاملتها؛ لأنه مسؤول عن ذلك محاسب عليه، وقد ورد عن النبي (ﷺ): "الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة".

- ليست المرأة هي وحدها الفتنة؛ فالرجل هو فتنة لها، فكل منهما خلق فتنة للآخر، أي خلق مجالاً لاختبار شخصيته وصقلها. ودفعها في اتجاه للتطور صاعد أم هابط، وعندما تتدهور العلاقة بين الرجل والمرأة تتحول قوى التجاذب بينهما إلى كارثة على نفسيهما وعلى المجتمع والحضارة معاً.

#### القسم الثاني، المرأة في واقع المسلمين

كان النظام العلماني المغترب البورقيبي، يرى أن قضية (تحرير المرأة) هي الطريق الأمثل للحاق بركب الحضارة الغربية، مقتدياً في ذلك بخطى الكمالية الأتاتورية!

ومنذ أن بدأت تلك السياسات المنحرفة التي أوشكت أن تطيح بكل خلق ودين، بلغت نسبة الطلاق في السنة الأولى عام ١٩٥٧م (٧٠٠) حالة، على حين تجاوزت هذه النسبة في السبعينيات عشرة آلاف حالة.

وكان على الحركة الإسلامية أن تدرك أهمية المرأة في عملية الإصلاح، فبدأت بتعليمهن أساسيات الدين وما يخصهن من تعاليمه من

تعدم في الإنسان أحاسيسه ونوازعه، يقول الزمخشري: (... ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همّاً لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمها عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين، «إنه من عبادنا المخلصين»).

- ولقد عُدَّت كلمة المميز «إن كيدكن عظيم» حكماً إلهياً قاطعاً في طبيعة النساء، مع أنه لا دليل على إقرار القرآن والكتاب والسنة ما يدعم هذا التأويل ويميز شخصية المرأة كل امرأة بالخبت والدهاء والادعاء بالباطل والإغواء، فالآيات التي تتحدث عن الطبيعة الإنسانية لا تميز بين ذكر أو أنثى فالاستعداد للخير والشر يشكل خاصية للطبيعة الإنسانية وظروف التربية والمجتمع تمي هذا الاستعداد، وبذلك يبقى للفاعل قدر من الحرية في تحمل تبعات أفعاله.

- وعلى فرض التسليم بأن كيد النساء هو أعظم مما لدى الرجال، فليس في ذلك في حد ذاته خسة في شخصية المرأة، بل إن دلالة على الضد من ذلك.. ذلك أن المرأة أوتيت فاعلية كبيرة وحيوية وإحساساً كبيرين في التوصل إلى الهدف الذي تحدده لنفسها، لا يصرفها عنه شيء، ويبقى منهاج استخدام هذه الطاقة الهائلة الدور الفعّال والريادي في تنوير المجتمع ودفعه في طريق التطور توصلأ إلى المثل الأعلى للمجتمع.

#### ٥ - (حب النساء)؛

«زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ...» (آل عمران: ١٤)، ولقد أثارت الآية المتقدمة لدى بعض المفسرين إشكالات يجب الوقوف عليها: ذهب من رأي أن الشهوات الواردة في آية التزين قد وردت في معرض الذم المنسوب إلى الشيطان، إلى أن أول تلك الشهوات: حُب النساء.

وقد رأى في حديث النبي (ﷺ): "ما تركت

## تقديم نماذج نسائية متميزة علمياً وثقافياً هو أفضل السبل للحركة الإسلامية لمواجهة التحدي الغربي بشأن المرأة



### المرأة والتعليم

#### (الاكتفاء بأبسط مستويات التعليم)

يميل كثير من الآباء للحد من طموح الفتاة لنيل الدرجات العلمية العليا، بحجة فساد أجواء التعليم، وأن حاجة الفتاة إلى العلم تقتصر على تعلم القراءة والكتابة، فما تقيدها الدرجات العلمية وهي تنهياً لتكون ربة بيت؟ وليس لهذا التصور البدائي أساس من الدين ولا من المصلحة، وتوجيهات الدين للمسلمين ذكوراً وإناثاً تجتمع في حثهما على طلب العلم بكل ضروبه، والتبحر فيه ومحاولة حيازة السبق في ذلك، ولقد بلغت أمهات المؤمنين مستوى من فهم الدين ورواية النصوص ما قصر دونه الرجال، إلا أنه ينبغي التركيز على عدد من الملاحظات:

- التعلّم هو أداة فعالة لتحرير الرجل كما هو للمرأة من رواسب عصر الانحطاط.

- تقديم نموذج نسائي على مستوى عال من العلم والثقافة هو أفضل السبل للحركة الإسلامية لمجابهة التحدي المتغرب، وإبراز المهانة التي الحقها بالمرأة وتحويلها إلى سلعة مقابل تعليمها!

#### قضية الاختلاط

وقد شغل الفقهاء بتحريمه على كافة المستويات من دون تحديد دقيق لهذا المفهوم، ولم يفرقوا بين وجود الرجل والمرأة في وضع مربب (الخلوة)، أو تحت سقف واحد لتعلم العلم أو مدارس شؤون المسلمين متأديبين بالآداب الشرعية في الهيئة والحركة.

خلال دروس الفقه والحديث، وكان إقبال النساء على الدعوة كبيراً فبرزت ظاهرة الزي الإسلامي. غير أن النشاط الإسلامي بين النساء لم يتجاوز مستوى تصحيح التصورات وتقويم السلوك، ومع اتساع الرؤية والنظر، بدأت طرح الأسئلة: إلى أي مدى تعبر حركتنا عن الإسلام في نظرتها للمرأة؟ وإلى أي مدى يمكن أن نعد أنفسنا قد تحررنا في موقفنا في قضية المرأة من تراث عصر الانحطاط ومن ردود الفعل تجاه التمييز للمرأة والمجتمع؟

ووجد أن عدداً كبيراً من المفاهيم المتعلقة بالمرأة تحتاج إلى إعادة نظر في ضوء النصوص الثابتة، ومن بعض هذه المفاهيم:

عمل المرأة: إن هذه القضية التي غدت إثر اتصال المسلمين بالحضارة الأوروبية مشكلاً لم يطرح في كتب الفقه قديماً، فلم يتساءل الفقهاء: هل للمرأة أن تساهم في حركة الإنتاج الاقتصادي أم لا؟ رغم أن الإسلام يؤكد على مسؤولية الرجل في الإنفاق على بيته لتفرغ المرأة لتربية أبنائها، ولكنهم لم يضعوا قيوداً خاصة تمنعها من ممارسة النشاط الاقتصادي، وأبدى المؤلف بعض الملاحظات منها:

- الأمومة ورعاية البيت وظيفتان اجتماعيتان من حق المرأة الأم أن تتقاضى أجراً مناسباً على جهودها فيهما.

- تعترض المرأة العاملة مشكلات كثيرة خارج البيت ودخله، فمن واجب الرجل أن يعينها في ذلك، اقتداء بالرسول (ﷺ).

- ضرورة وجود العنصر النسائي الإسلامي في المؤسسات التي يكثر فيها النساء كالمؤسسات الصحية والتعليمية والاجتماعية، غداً أمراً واقعاً فلا بد من مواجهته بروح جريئة (روح الاقتحام) بدلاً من روح الهروب والحذر وإيثار السلامة، وكذلك الميدان السياسي والثقافي، نحتاج إلى زعامات نسائية متمسكات بخلق الإسلام بوعي عميق بمشكلات العصر ومطالبه.

على منع المرأة من الترشح؛ لأن هذه ولاية عامة على الرجال وهي ممنوعة منها، إذ الأصل الذي أثبتته القرآن الكريم أن الرجال قوامون على النساء، فكيف نقلب الوضع وتصبح النساء قوامات على الرجال؟

وبيّن المؤلف، قائلًا: إن عدد النساء اللاتي يرشحن للمجلس النيابي سيظل محدوداً وستظل الأكثرية الساحقة للرجال، وهي التي تحل وتعدّد، فلا مجال لولاية النساء على الرجال.

إن آية القوامة إنما قررت في الحياة الزوجية، فالرجل هو رب الأسرة «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» (النساء: ٣٤)، أما ولاية النساء على بعض الرجال خارج نطاق الأسرة فلم يرد ما يمنعه، بل الممنوع هو الولاية العامة للمرأة على الرجال، والحديث الذي رواه البخاري: "لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة"، أي رئاسة الدولة كما تدل عليه كلمة (أمرهم) فإنما تعني أمر قيادتهم ورئاستهم العامة.

أما بعض الأمر فلا مانع أن تكون للمرأة ولاية فيه، مثل ولاية الفتوى أو الاجتهاد أو التعليم، وقد مارسته على مر العصور.

**والخلاصة:** إنه ليس في الإسلام ما يبرر إقصاء نصف المجتمع الإسلامي عن دائرة المشاركة والفعل في الشؤون العامة، بل إن ذلك من الظلم للإسلام ولأمته قبل أن يكون ظلمًا للمرأة ذاتها.

نحن إذن مع حق المرأة الذي قد يرفع أحيانًا إلى مستوى الواجب في مشاركتها في الحياة السياسية على أساس المساواة الكاملة غير المنقوصة في إطار احترام أخلاقيات الإسلام، فإنما التفاضل بالكفاءة والخلق والجهد لا بالجنس أو اللون، «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير». ■

ففي صدر الإسلام كانت النساء يشهدن دروس العلم بمسجد النبي (ﷺ) من دون حواجز، وكانت المرأة تعبر عن رأيها من دون أن يطرح أحد في مسجد النبي قضية هل صوتها عورة أم لا؟ فكن يجادلن في مسجد النبي وخلفائه! بل كن يجاهدن مع رسول الله (ﷺ) ويشمرن عن سوقهن وهن يسقين ويداوين الجرحى، فكيف تحول البيوت إلى سجون للنساء، والحكم عليهن جميعاً بما حكم به على اللاتي يأتين الفاحشة!!

### هل تحل وظائف القيادة هي المرأة؟

تبدو ظواهر بعض النصوص ومنها المتعلقة بمكانة المرأة في المجتمع وعلاقتها بالرجل متناقضة.. فعلى حين يؤكد بعضها تبعية المرأة للرجل حتى لكانها تبدو فاقدة للأهلية المدنية المسؤولية أمام الله والناس، وتأتي آية القوامة بسبب التوظيف الخاطئ على رأس تلك النصوص، والحقيقة أن علماء الأصول والتفسير والفقه متفقون على أن خطاب التكليف يستوي فيه الرجال والنساء على حد سواء، فالمعوم والمساواة هي الأصل عدا ما تعلق به نصوص للرجال أو للنساء.

وأما بخصوص (المشاركة العامة للمرأة في الحياة السياسية)؛ فالمرأة في بيت النبوة أهم من استوعب ونقل إلى الأمة علوم الإسلام، ووقفت المواقف المشهودة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووليت الوظائف المهمة كقضاء الحسبة، مع أن القضاء من الولايات العظمى، واستشيرت في تولي الخلفاء، وقادت معارضة ملحة ضد خليفة من أعظم الخلفاء، وكان تحت أمرتها رجال من أعظم الصحابة والمبشرين بالجنة، وإذا كان كل ذلك لا يُعَدُّ مشاركة سياسية، فماذا عساها تكون المشاركة السياسية؟

أما (مشاركة المرأة المسلمة ليس بوصفها ناخبة، بل بوصفها أيضاً مرشحة ووكيلة عن قومها، عن حي أو قرية أو مدينة أو عن منظمة نسائية، أو بوصفها مشتركة)، هناك من يستدلون